ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 14 نوفمبر 2018

لم يُنشر من قبل، حنة آرنت؛ ما تعنيه الحرية والثورة حقيقةً

أفكار حول الفقر والبؤس وثورات التاريخ العظيمة

حنة آرنت
ترجمة: محمد معاذ شهبان

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

لم يُنشر من قبل،

حنة آرنت؛ ما تعنيه الحرية والثورة حقيقةً[1]

أفكار حول الفقر والبؤس وثورات التاريخ العظيمة

حنة آرنت

ترجمة: **محمد معاذ شهبان**

1- Hannah Arendt, "Never-Before-Published Hannah Arendt on What Freedom and Revolution Really Mean" The New England Review. NER 38.2, June 19, 2017

في الستينيات من القرن الماضي، وبعد مُضي سنوات على إصدار كتابها "عن الثورة"، عاشت حنة آرنت في عالم تميز بعدد من الأحداث الثورية، والتي كانت حساسة تُجاهها، وهي الأحداث التي تمثلت في تنحية خروتشوف بالاتحاد السوفياتي وإقامة جدار برلين الذي قسم ألمانيا إلى دولتين، وأزمة الصواريخ الكوبية وما عرف بـ"الثورة الهادئة" في كندا، والتي كانت ذات طبيعة قومية وحركات الحقوق المدنية هنا وعبر أنحاء العالم والاحتجاجات المناهضة للحرب، والتي كان بعضها دامياً في الولايات المتحدة وفي أوروبا، والانقلابات العسكرية في كوريا الجنوبية وفيتنام واليونان والمجمع الفاتيكاني الثاني الذي جاء بتغييرات ثورية عميقة في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين، والرعب الذي أثارته الثورة الثقافية في الصين والثورة العلمية التي عرفت بـ"غزو الفضاء" ومعارك التخلص من الاستعمار ونيل الاستقلال الجارية في المستعمرات الإمبريالية السابقة.

صُنفت هذه الوثيقة، التي لم تنشر من قبل، على أنها "محاضرة" تعود لحوالي "1966 - 1967". ولا يُعرف أين أُلقيت؟ ومتى وما إذا كانت قد أُلقيت فعلاً؟ وتبدو هذه الوثيقة طويلة جدّاً لتُشكل موضوع محاضرة. ومن ثمَّ، قد تكون أُلقيت بجامعة شيكاغو، حيثُ كانت آرنت تُدَرس حينها بمدرسة الفكر الاجتماعي أو قد تكونُ ألقيت بجامعة ذا نيو سكول للأبحاث الاجتماعية، والتي وافقت آرنت على الانضمام إليها سنة 1967، حتى تُقيم في نيويورك قرب زوجها، هنريك بلوشير، والذي كان مريضاً. لم يُحدد زمان ولا مكان هذه المحاضرة، على الرغم من البحث المكثف الذي شمل السجلات الموجودة.

- جيروم كوهن.

آسَفُ لكونِ موضوعي اليوم محلي الأهمية إلى حد مربك، فقد صارت الثورات أحداثاً يومية، حيثُ نهضت العديد من الشعوب مع تصفية الاستعمار "لتتخذ لنفسها - مثل بقية شعوب الأرض - موقف الانفصال والندية التي تخولها لها قوانين الطبيعة وخالقها". ومثلما تمثلت النتيجة التي استمرت طويلاً بعد التوسع الاستعماري في تصدير فكرة الدولة القومية إلى الجهات الأربع من الكون كذلك، قادت نهاية الاستعمار تحت ضغط القومية إلى انتشار فكرة الثورة عبر أرجاء العالم.

تندرج كل هذه الثورات، وبغض النظر عن مدى عنف خطابها المناهض للغرب، تحت غطاء الثورات التقليدية الغربية. فقد سبقت الحالة الراهنة سلسلة ثورات بعد الحرب العالمية الأولى في أوروبا نفسها. منذ ذلك الحين، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية لم يبدُ أي شيء أكثر يقيناً من أن تغييراً ثورياً لشكل الحكومة، في تميز عن تعديل الإدارة، سيعقب الهزيمة في حرب بين القوى المتبقية، باختصار إبادة كلية. إلا أنه من المهم أن نُشير إلى أنه حتى قبل التطورات التكنولوجية التي جعلت من الحروب بين القوى الكبرى

صراع حياة أو موت، وبالتالي انهزاماً ذاتياً فقد أصبحت الحروب من الناحية السياسية مُسبقاً مسألة حياة أو موت. لم تكن أبداً تلك بالمسألة، إلا أنها تعني أن الواقفين وراء الحروب القومية صاروا يتعاملون مع الأمر وكأنهم يخوضون حروباً أهلية. وكان جلياً أن الحروب الصغيرة على مدى عشرين سنة الماضية في كل من كوريا والجزائر وفييتنام كانت حروباً أهلية، تدخلت فيها القوى العظمى، إما لأن الثورة هددت أنظمتها، أو لأنها خلقت فراغاً خطيراً في السلطة. لم تعد الحرب هي ما يُعجل بالثورة في هذه الأمثلة، إذ تحولت البادرة من الحرب إلى الثورة، والتي تلاها في بعض الحالات بالتأكيد تدخل عسكري. لقد بدا الأمر وكأننا عدنا فجأة للقرن الثامن عشر ميلادي، حين أعقبت الثورة الأمريكية حربا ضد بريطانيا وأعقبت الثورة الفرنسية حربا ضد القوى الملكية المتحالفة في أوروبا.

ومجدداً ورغم الظروف المتباينة بشكل كبير - من حيث التكنولوجيا وغيرها - تبدو التدخلات العسكرية عاجزة أمام هذه الظاهرة. وبينما كان مصير عدد كبير من الثورات في القرنين الماضيين الزوال، إلا أن قليلاً منها تبدد نسبياً بسبب التفوق في إعمال وسائل العنف. وعلى النقيض من ذلك، وبالرغم من أن التدخلات العسكرية كانت ناجحة، فقد أبانت أحياناً كثيرة بشكل واضح عن عدم نجاعتها في استتباب الاستقرار وملء فراغ السلطة؛ حتى أن النصر يبدو عاجزاً عن تعويض الفوضى بالاستقرار والفساد بالأمانة والاضمحلال والتفكك بالسلطة والثقة بالحكومة.

كنتيجة لثورة مُجهضة، لا يوفر الاسترداد أكثر من غطاء مؤقت ورفيع تبقى تحته عمليات التفكك غير مراقبة. وفي المقابل، هناك إمكانية استقرار كبيرة في المستقبل متأصلاً في الهيئات السياسية الجديدة المؤسسة عن وعي، والتي تُجسدها الجمهورية الأمريكية بالأساس، بيدَ أن المشكل الأساسي بالطبع هو ندرة الثورات الناجحة. صارت الثورات في التشكيل الحالي للعالم أهم الأحداث دلالة وحدوثاً، للأفضل أو للأسوأ، وهو ما يبدو أنه سيستمر للعقود القادمة. وعوض أن نتفاخر بأننا أعظم قوة على وجه الأرض، لن يكون من الحكمة فقط، بل سيكون من الموضوعي أن نقول إننا نحظى باستقرار استثنائي منذ قيام جمهوريتنا، وأن هذا الاستقرار كان الامتداد الرئيس للثورة. وحيث إن الحروب لم تعد هي الحاسمة فيها، فإن البث في الخلافات بين القوى العظمى، سيكون مرتكزاً على المستوى البعيد على الطرف الذي يفهم بشكل أفضل ماهية الثورات، وما الذي يوجد فيها على المحك.

"شهد القرنان الماضيان أفول عدد كبير من الثورات"

لم يعد في الأمر سرٌ على ما أعتقد، على الأقل منذ واقعة خليج الخنازير، في أن السياسة الخارجية لهذا البلد أبانت بالكاد عن خبرة أو دراية بالحكم على الأوضاع الثورية أو في فهم زخم الحركات الثورية.

وبالرغم من أن مسؤولية حادث خليج الخنازير تُلقى في الغالب على المعلومات الخاطئة، والخلل الذي شاب عمل أجهزة الاستخبارات، فإن هذا الفشل أعمق بكثير، حيثُ تمثل في سوء فهم معنى أن تعاني الشعوب من الفقر في بلد متخلف، حيث بلغ الفساد أعلى مستوياته، ثم تتحرر فجأة، ليس من الفقر الذي تعانيه، وإنما من الغموض والضبابية اللذين يلفان بؤسهم. ما الذي يعنيه عندما يسمعون لأول مرة عن ظروفهم، وهي تناقش علناً ثم يجدون أنفسهم مدعوين إلى المشاركة في تلك المناقشة، وما الذي يعنيه أن تتم دعوتهم إلى عاصمة بلدهم التي لم يروها من قبل ليُقال لهم: هذه الشوارع وهذه المباني وهذه الساحات كلها لكم، هي ملك لكم، وهي مدعاةُ فخر لكم. وقد حدث نفس الشيء تقريباً لأول مرة خلال الثورة الفرنسية.

والغريب أن رجلاً كبيراً في السن في شرق بروسيا لم يغادر قط بلدته كونيسبرغ، وهو إيمانويل كانط، الفيلسوف والمحب للحرية والمعروف بالكاد بأفكاره المتمردة، وهو الذي استوعب الأمر، حيث قال: "لن تُنسى أبدا هذه الظاهرة في تاريخ البشرية"، وبالفعل لم تُنس، بل لعبت على العكس من ذلك دوراً محورياً في التاريخ العالمي منذ بروزها. وبالرغم من أن العديد من الثورات انتهت بالاستبداد، فإنه لطالما حضر تعبير كوندورسي: "يُطبق مصطلح "ثورية" فقط على الثورات التي تسعى للحرية."

يمكن أن يتم استخدام الثورة، مثلها مثل أي مصطلح آخر من معجمنا السياسي، في سياق عام دون أن نأخذ بعين الاعتبار أصل الكلمة أو اللحظة الزمنية التي تم فيها تطبيق المصطلح في ظاهرة سياسية بعينها. ويقول افتراض مثل هذا الاستعمال، إنه بغض النظر عن وقت وسبب ظهور هذا المصطلح إلا أن الظاهرة التي يحيل عليها تبقى معاصرة للذاكرة الإنسانية. هذا وتزداد الرغبة في استخدام الكلمة بشكل عام، حينما نتحدث عن "الحروب والثورات" معاً، ذلك أن الحروب بالفعل قديمة قدم تاريخ البشرية الموثق. قد يكون من الصعب استعمال مصطلح "الحرب" في أيّ سياق عام آخر فقط إذا كان من الصعب تحديد ظهورها الأول من حيث الزمان أو المكان، لكن الاستعمال العشوائي لمصطلح الثورة لا يقبل أي عذر مماثل.

بالعودة إلى الثورتين العظيمتين اللتين عرفتهما نهاية القرن الثامن عشر ميلادي والسياق الخاص الذي ارتبط بهما، كان مصطلح "الثورة" بالكاد بارزاً في معجم الفكر السياسي أو الممارسة. عندما ظهر المصطلح في القرن السابع عشر الميلادي على سبيل المثال كان متمسكاً بشدة بمعناه الفلكي الأصلي الذي كان يعني حركة خالدة ومغرية ومتكررة باستمرار للأجرام السماوية، فكان استعمالها السياسي مجازياً، إذ يصف حركة تعود لنقطة ما قبل التأسيس، وبالتالي حركة أو تأرجحاً لنظام مقرر سلفاً. لم يتم استعمال الكلمة لأول مرة، عندما اندلعت ما سميناها ثورة بإنجلترا وبكرومويل، وأسفرت عن صعود ديكتاتور للحكم، بل على العكس، إذ كان ذلك سنة 1660 بمناسبة قيام الملكية من جديد بعد الإطاحة ببرلمان رومب. لكن الثورة

العظيمة، حيث كان من المفارقات أن وجد المصطلح مكانا له في اللغة التاريخية-السياسية، لم تكُن تعتبر ثورة وإنما استرداد السلطة الملكية لاستقامتها ومجدها. وبالعودة لأحداث أواخر القرن الثامن عشر ميلادي، يبدو أن الإشارة للمعنى الفعلي للثورة تظهر بشكل جلي في الكتابة المنقوشة على الختم العظيم لإنجلترا لسنة 1651، والذي يعني حسب معناه التحول الأول من الملكية إلى الجمهورية: "استرداد الحرية بفضل بركات الربّ."

إن حقيقة أن مصطلح "الثورة" كان في الأصل يعني الاسترداد هو أكثر من مجرد غرابة في الدلالات. من المستحيل فهم ثورات القرن الثامن عشر دون معرفة أن الثورات اندلعت في البدء، حينما كان هدفها الاسترداد وبأن صميم هذا الاسترداد كان الحرية. في أمريكا، وحسب جون آدامز كان رجال الثورة "يُدعون دون سابق إنذار ويُجبرون دون سابق ميلٍ"، وينطبق نفس الشيء على فرنسا، حيث يقول توكفيل: "ربما أن المرء كان يعتقد أن مبتغى الثورة القادمة هو إعادة النظام القديم عوض الإطاحة به." وفي خضم كلا الثورتين وحينما فطن الفاعلون إلى أنهم كانوا بصدد بدء مشروع جديد تماماً عوض العودة لأي شيء قبله، وحينما كان مصطلح "الثورة" يتخذ معناه الجديد، كان طوماس بين، من بين كل الناس الذين لا زالوا أوفياء لروح العصر السحيق، هو من اقترح بكل جدية تسمية كل من الثورتين الأمريكية والفرنسية "ثورات مضادة"، إذ أراد أن يحفظ الأحداث الاستثنائية من الشك بأنه جرى التأسيس لبداية جديدة تماماً، ومن إنكار العنف الذي ارتبطت به هذه الأحداث.

على الأرجح أننا سنتغاضى عن الرعب الغريزي تقريباً، والذي يتمثل في عقلية هؤلاء الثوار الأوائل قبل العقلية الجديدة تماماً، ذلك أننا ملمون من جهة بشكل كبير بتوق علماء وفلاسفة العصر الحديث حيال "الأشياء التي لم تُر من قبل والأفكار التي لم يتم التفكير فيها من قبل."، ومن جهة أخرى لأن لا وجود لما هو بارز أو مدهش في خضم هذه الثورات مثل التأكيد المشدد على الحداثة التي كررت أكثر من مرة من قبل الفاعلين والمتتبعين على حد سواء، في إصرارهم على أن التاريخ لم يشهد مثيلاً لهذه الدلالة والفخامة. وتتمثل النقطة الأهم والأصعب في أن الرثاء الهائل للعصر الجديد، نظام العصور الجديد، الذي لا زال مطبوعاً على عملات الدولار الورقية، جاء إلى الواجهة فقط بعد أن بلغ الفاعلون، عكس إرادتهم، نقطة اللاعودة.

"إن حقيقة أن مصطلح "الثورة" كان يعني في الأصل الاسترداد هو أكثر من مجرد غرابة في الدلالات."

وبالتالي، فإن ما حصل في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي كان محاولة لاسترداد واسترجاع حقوق وامتيازات قديمة انتهت بنتيجة عكسية: تنمية متقدمة وفتح مستقبل يتحدى كل المحاولات التي تبتغي التفاعل أو التفكير على مستوى حركة دائرية أو متجددة. وبينما تحول مصطلح "الثورة" بشكل راديكالي خلال

مسلسل الثورة، فقد لحق شيء مشابه لكنه أكثر تعقيداً بشكل غير محدود بمصطلح "الحرية." طالما أن كل ما كانت تعنيه الحرية هو "استرداد الحرية بفضل بركات الربّ." فقد بقيت مسألة متعلقة بتلك الحقوق والحريات التي نربطها اليوم بالحكومة الدستورية، والتي تدعى بالحقوق المدنية؛ بيدَ أن ما لم تشمله كان الحق السياسي في المشاركة في الشؤون العامة. لم يكن أيّ من هذه الحقوق الأخرى، بما في ذلك الحق في التمثيل لغايات فرض الضرائب، من نتائج الثورة سواء من حيث النظرية أو التطبيق. ليست "الحياة والحرية والملكية"، بل إن الثوري تجسد في الادعاء بأنها حقوق لا تنتهك حرمتها ومكفولة لجميع البشر، بغض النظر عن مكان عيشهم أو نظام حكوماتهم، وحتى في هذا الامتداد الجديد والثوري الذي شمل كل البشر، لم تكن الحرية تعني أكثر من الانعتاق من التقييد غير المبرر، وهو ما كان سلبياً بالأساس.

إن الحريات التي تهم الحقوق المدنية هي نتائج التحرر، لكنها ليست بأي حال من الأحوال المحتوى الفعلي للحرية التي يتمثل جوهرها في الولوج إلى الحياة العمومية والمشاركة في الشؤون العامة. وإذا كانت الثورات تقتصر على السعي لضمان الحقوق المدنية، فإن التحرر من الأنظمة التي تجاوزت سلطاتها، وانتهكت الحقوق المرسخة سيكون كافياً. وصحيح أن ثورات القرن الثامن عشر ميلادي قد بدأت من خلال المطالبة بهذه الحقوق. يبرز التعقيد حين تهتم الثورة بكل من التحرر والحرية، وبما أن التحرر شرط من شروط الحرية - بالرغم من أن الحرية ليست بالضرورة نتيجة للتحرر - فمن الصعب أن نرى ونقول أين تنتهي رغبة التحرر والانعتاق من الاضطهاد، وأين تبدأ الرغبة في الحرية وفي عيش حياة سياسية. إن بيت القصيد هو أن التحرر من الاضطهاد كان ليتحقق بشكل كامل في ظل حكومة ملكية لا حكومة مستبدة، في حين أن حرية نمط حياة سياسي كان يتطلب شكلا جديداً أو مكتشفاً من جديد للحكومة، حيث طالبت بتأسيس جمهورية. لا شيء أكثر تعزيزاً بالحقائق من الادعاء الرجعي لجفرسون "أن منافسات ذلك اليوم كانت منافسات مبادئ بين المطالبين بحكومة جمهورية وآخرين بحكومة ملكية." إن ربط الحكومة الجمهورية بالحرية والاقتناع بأن الملكية حكومة مجرمة وضعت للعبيد - بالرغم من أنها أصبحت مكاناً مألوفاً مع اندلاع الثورات - كانت غائبة عن عقول الثوار أنفسهم. ومع ذلك، وبالرغم من سعيهم لحرية جديدة، سيكون من الصعب الإبقاء على فكرة أنهم لم يكن لديهم دافع مسبق تجاهها. على النقيض من ذلك، كان هناك شغف لهذه الحرية السياسية الجديدة، على الرغم من أنها لم تكن تساوي بعد النمط الجمهوري للحكومة الذي ألهم وهيأ من خاضوا الثورة دون أن يكونوا واعين بشكل كامل بما كانوا يفعلون.

بغض النظر عن مدى فتح أبوابها للجماهير الغفيرة وللمقهورين - التعيسون والبؤساء والملعونون في الأرض - مثلما نعرفهم في البلاغة الكبيرة للثورة الفرنسية، لم تشهد أية ثورة انخراطهم منذ البداية. كما لم يسبق أبدا لأية ثورة أن كانت نتيجة مؤامرات أو جمعيات سرية أو أحزاب ثورية معلن عنها. يستحيل

بشكل عام، قيام الثورة عندما تكون سلطة الجسم السياسي سليمة، وهو ما يتمثلُ في الظروف الراهنة في الثقة التي توضع في القوات المسلحة للانضباط للسلطات المدنية. ليست الثورات إجابات ضرورية، بل هي إجابات ممكنة لتداول السلطات، كما أنها ليست سبباً في انهيار السلطة السياسية. حيثُما سُمح لهذه العمليات التفكيكية بالتطور دون ضوابط، عادة عبر مدة طويل، فإن الثورات قد تظهر في حالة ما إذا توفر عدد كافٍ من الجماهير المستعدة لانهيار نظام معين وقادرة على تولي السلطة. دائماً ما تبدو الثورات ناجحة مع سهولة بالغة في مراحلها الأولى، والسبب أن من يُفترض فيهم أن "يقودوا" الثورات لا "يتولون السلطة"، بل يلتقطونها حيث توجد في الشوارع.

إذا كان هناك من شيء يجمع رجال الثورتين الأمريكية والفرنسية في علاقة بالأحداث التي حددت حياتهم وشكلت قناعاتهم وفرقتهم بالتالي، فهو التوق المُتقد للمشاركة في الشؤون العامة واشمئزاز لا يقلُ حماسا من نفاق وجنون "المجتمع الصالح" - الذي ينضاف له نفاذ صبرٍ واحتقار معبر عنه بشكل أقل أو أكثر حيال تفاهة الشؤون الخاصة فحسب. وفي سياق تشَكُل هذه العقلية المميزة من نوعها كان جون آدامز مُحقاً تماماً حين قال إن "الثورة تأثرت قبل أن تبدأ الحرب"، ليس بسبب روح ثورية أو متمردة بعينها ولكن لأن سكان المستعمرات "تم تشكيلهم وفق القانون على شكل شركات أو هيئات سياسية" مع منحهم "الحق في التجمع ... في مبنى البلدية الخاص بهم، حتى يبثوا في الشؤون العامة"، حيث إنه بالفعل "في مجالس المدن أو المقاطعات هذه تكونت آراء الشعب في المقام الأول."

ولليقين، لم تشهد فرنسا شيئاً شبيهاً بالمؤسسات السياسية في المستعمرات، إلا أن العقلية بقيت على حالها، ما سماه توكفيل "شغفاً" و"ذوقاً" في فرنسا كان في أمريكا تجربة واضحة منذ بدايات زمن الاستعمار، وفي الواقع منذ ذلك الحين أضحى ميثاق ماري فلاور مدرسة حقيقية للروح العامة والحرية العامة. بالعودة للثورات، كان يُسمى هؤلاء الرجال من كلا ضفتي المحيط الأطلسي رجال الأدب، ومن خاصياتهم أنهم قضوا أوقات فراغهم "يُنقبون في أرشيف العصور القديمة"؛ أي من خلال العودة إلى التاريخ الروماني، ليس لأنهم كانوا متيمين بشكل رومانسي بالماضي، بل لأنهم كانوا يسعون لاستعادة الدروس الروحية والمؤسساتية السياسية التي فُقدت أو نُسيت نسبياً خلال قرون من التقليد المسيحي المشدد. "بقي العالم فارغاً منذ عهد الرومان، وحدها ذكراهم هي التي ملأت ذلك الفراغ، وهي اليوم نبوءتنا الوحيدة للحرية" يقول سانت جيست، وقد تنبأ قبله طوماس بين بقوله: "ما كانت عليه أثينا مصغرة، ستكون عليه أمريكا في حجمها الضخم."

وحتى نفهم دور العصور القديمة في تاريخ الثورات، وجب علينا تذكر الحماس تجاه "الحكمة القديمة"، والتي أحيا من خلالها هارينغتون وميلتون ديكتاتورية كروموِيل، وكيف أن هذه الحماسة تم إحياؤها من جديد

في القرن الثامن عشر ميلادي في كتاب مونتسكيو **نظرات في أسباب عظمة الرومان وسقوطهم**. لو لم يكن هناك وجود للمثال الكلاسيكي لِما يجب أن تكون عليه السياسات، وما يجب أن تعنيه المشاركة في الشؤون العامة لسعادة الإنسان لما تجرأ أي من رجال الثورات على الإقدام على ما يبدو أنه فعل غير مسبوق. بدا الأمر تاريخياً كما لو أن إحياء عصر النهضة للعصور القديمة قد مُنح شهادة حياة جديدة، كما لو أن الحماس الجمهوري تجاه المدن-الدول الإيطالية التي لم تعمر طويلاً بحكم بروز الدولة القومية بقي كامناً، إذا جاز التعبير، حتى تُمنح شعوب أوروبا الوقت للنضوج تحت وصاية حكم الأمراء المطلق والمستبدين المتنورين.

"دائماً ما تبدو الثورات ناجحة مع سهولة بالغة في مراحلها الأولى، والسبب أن من يُفترض فيهم أن "يقودوا" الثورات لا "يتولون السلطة"، بل يلتقطونها حيث توجد في الشوارع."

توجد أول عناصر فلسفة سياسية ترتبط بمفهوم الحرية العامة في كتابات جون آدامز. وتتمثلُ نقطة انطلاقه في ملاحظته التي تقول: "أينما وجد الرجال أو النساء أو الأطفال، سواء كانوا كبارا في السن أو شبابا، أثرياء أو فقراء، من طبقة عليا أو طبقة سفلى ... جاهلين أو متعلمين، فإن كل فرد يُعتبر مدفوعاً بقوة برغبته في أن يُرى ويُسمع وأن يتم الحديث عنه، وأن يلقى استحسان الناس واحترامهم في إطار معرفته." تمثلت الفضيلة التي رآها آدامز في هذه "الرغبة" في "الرغبة في التفوق على الآخر" واعتبر "الطموح" عيبها، حيث "تطمح للسلطة كوسيلة للتميز." ويعتبر هذان الاثنان فعلاً من بين الفضائل والعيوب الرئيسة التي تميز رجل السياسة؛ ذلك أن السعي للسلطة، بغض النظر عن أي توق للتميز (حيث السلطة ليست وسيلة بل غاية) من ميزات الطاغية وليس بالعيب السياسي، هي الجودة التي تسعى لتدمير الحياة السياسية بأكملها، حيث لا تقل عيوبها عن فضائلها؛ ذلك بالتحديد لأن الطاغية لا يرغب في التفوق، بل يفتقر إلى كل نوع من الحماس للتميز، والذي يجد متعة في السيطرة عليه، وبالتالي فهو يعزل نفسه عن رفقة الآخرين، وفي المقابل، فإن الرغبة في التفوق هي ما يجعل الناس تُفضل رفقة أقرانهم، وهي ما تُحفزهم على الانخراط في الحياة العامة. إن هذه الحرية العامة هي حقيقة دنيوية ملموسة خلقها الناس حتى يتسنى لهم الاستمتاع معاً في العلن - أن يُروا ويتم سماعهم وأن يُعرفوا ويتذكرهم الآخرون. ويتطلب هذا النوع من الحرية المساواة، وهي ممكنة فقط بين الأقران. ويبقى ذلك ممكناً مؤسساتياً في النظام جمهوري، حيث لا وجود للرعايا ولا وجود للحكام بالمعنى الدقيق للكلمة. هذا هو السبب الذي جعل النقاشات حول أنماط الحكومة تلعبُ دورا كبيراً في فكر وكتابة الثوار الأوائل في تناقض كبير مع الأيديولوجيات اللاحقة.

يتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا التوق للحرية في حد ذاتها استقام واكتسب قوته بفضل الرجال الميسورين، رجال الأدب الذين لم يكن لهم تخصص معين، ولم يكونوا منشغلين في كسب قوت عيشهم، إذ

حظوا، بمعنى آخر، بامتيازات المواطنين الأثينيين والرومانيين دون أن ينخرطوا في شؤون الدولة التي شغلت أحرار العصور القديمة. هذا دون الحديث عن أن الناس وحيثما عاشوا في ظروف بائسة كان هذا الشغف للحرية مُبهماً. وإذا ما أردنا دليلاً إضافيا على غياب مثل هذه الظروف في المستعمرات، "المساواة الجميلة" في أمريكا، مثلما يصورها جفرسون بقوله إن "الفرد الأكثر شقاء" كان أفضل حالاً من الناحية المادية من تسعة عشر مليوناً من مجموع عشرين مليون من سكان فرنسا، علينا فقط أن نتذكر أن جون آدامز عزا حبه للحرية "للأغنياء والفقراء وأولئك المنتمين للطبقة العليا أو السفلى والجاهلين أو المتعلمين." ويبدو أن ذلك هو السبب الرئيس والوحيد الذي جعل المبادئ التي ألهمت رجال الثورات الأولى منتصرة ظافرة في أمريكا ومخفقة بشكل كبير في فرنسا. كانت الحكومة الجمهورية في فرنسا في عيون الأمريكيين "غير طبيعية ولا عقلانية وغير قابلة للتطبيق لكونها ستحكم الفيلة والأسود والنمور والفهود والذئاب والدببة في معرض الوحوش الملكي بقصر فرساي" (جون آدامز). ويبقى السبب في القيام بهذه المحاولة متمثلاً في أن من قاموا بها، رجال الأدب، لم يختلفوا كثيراً عن رفقائهم الأمريكيين، بل إنهم لم يفطنوا إلى أنهم كانوا يقومون بذلك في ظل ظروف مختلفة تماماً إلا خلال الثورة الفرنسية.

اختلفت الظروف ما بين سياسية واجتماعية، حتى أن حكم الملك والبرلمان في إنجلترا كان عبارة عن "حكومة معتدلة" مقارنة بالحكم المطلق في فرنسا. طورت إنجلترا تحت رعايتها نظام حكم ذاتي معقد وعملي، وهو ما تطلب فقط التأسيس الواضح لجمهورية حتى يثبت وجودها؛ بيد أن هذه الاختلافات السياسية، ورغم أهميتها لم ترق للعقبة الهائلة أمام تأسيس الحرية الموروثة في الظروف الاجتماعية لأوروبا. وبالرغم من أن رجال الثورات الأولى كانوا واعين تماماً بأن التحرر يجب أن يسبق الحرية، إلا أنهم كانوا غير مدركين لحقيقة أن هذا التحرر يتجاوز التحرر السياسي من السلطة المطلقة والمستبدة، وبأن الانعتاق إلى الحرية لا يعني فقط التحرر من الخوف، بل من الحاجة أيضا. كما لم يكن من الممكن أن تعمل الوسائل السياسية على تجاوز حالة الفقر المدقع التي تعاني منها جماهير عريضة من الشعب، أولئك الذين ظهروا للعلن لأول مرة، حينما تقاطروا على شوارع باريس، لم تنكسر سلطة القيود الجبارة التي كانوا يكدحون تحت إمرتها قبل انقضاض الثورة مثلما حدث مع السلطة الملكية للملك.

ومن حسن حظ الثورة الأمريكية أنها لم تضطر لمواجهة هذا العائق أمام الحرية، كما أنها تدين في جزء كبير من نجاحها لغياب الفقر المدقع في صفوف الرجال الأحرار ولاختفاء العبيد في مستعمرات العالم الجديد. للعلم فقد شهدت أمريكا الفقر والبؤس اللذين كانا مشابهين لظروف "الكادحين الفقراء" في أوروبا. إذا كانت "أمريكا بلدا جيداً للإنسان الفقير" حسب ويليام بين، وظلت حلم الأرض الموعودة للمفقرين في أوروبا حتى بداية القرن العشرين والحقيقة، فقد اعتمد ذلك الخير بشكل كبير على شقاء السود. في أواسط

القرن الثامن عشر ميلادي عاش حوالي 400 ألف من السود إلى جانب مليون و850 ألف من البيض في أمريكا، وبالرغم من غياب إحصاءات موثوقة، إلا أنه يُعتقد في ذلك الوقت أن نسبة العوز الكامل كانت أعلى في بلدان العالم القديم (علماً أنها سترتفع بشكل ملحوظ خلال القرن التاسع عشر). كان الاختلاف حينها في تغاضي الثورة الأمريكية عن وجود البؤساء - بسبب مأسسة العبودية والاعتقاد بأن العبيد ينتمون لـ"عرق" مختلف - تنضاف إلى ذلك المهمة الهائلة لتحرير أولئك الذين لم يكونوا مقيدين بشكل كبير بالاضطهاد السياسي كضرورات مطلقة للحياة. أما التعيسون الذين لعبوا دوراً جباراً في الثورة الفرنسية، والتي سمتهم الشعب فلم يكن لهم وجود أو بقوا في غموض كامل بأمريكا.

"يتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا التوق للحرية في حد ذاتها استقام واكتسب قوته بفضل الرجال الميسورين، رجال الأدب الذين لم يكن لهم تخصص معين ولم يكونوا منشغلين في كسب قوت عيشهم."

كان من بين أبرز نتائج الثورة الفرنسية خروج الشعب للشوارع لأول مرة في التاريخ، وهو ما جعلهم مرئيين. عندما حدث ذلك اتضح أن القليلين كان لهم امتياز الحرية في أن يتصرفوا أحراراً وليس الحرية فقط. وعلى نفس المنوال، لم تأت الثورة الأمريكية بالكثير من النتائج الكفيلة بالفهم التاريخي للثورات، بينما حددت الثورة الفرنسية، التي انتهت بفشل مدوٍّ، ولا زالت تُحدد ما نسميه اليوم التقليد الثوري.

ما الذي حصل إذن في باريس سنة 1789؟ أولاً كان التحرر من الخوف امتيازاً، حتى أن قلة تمتعت به لفترات قصيرة من التاريخ، إلا أن التحرر من الحاجة كان الامتياز الأكبر الذي ميز نسبة صغيرة جداً من البشرية عبر قرون من الزمن. إن ما نحاول أن نسميه التاريخ الموثق للبشرية هو في معظمه تاريخ القلة من ذوي الامتيازات. فقط من خبروا التحرر من الحاجة هُم من يُقدرون بشكل كامل معنى التحرر من الخوف، وفقط من تحرروا من كل من الحاجة والخوف هم في مكانة تتيح لهم تصور التوق للحرية العامة، وأن يطوروا داخلهم طعم الحرية ومذاق المساواة التي تحملها الحرية في ثناياها.

قد يصح القول من الناحية البيانية أن كل ثورة تمر في البداية عبر مرحلة التحرر قبل أن تبلغ الحرية، وهي المرحلة الثانية والحاسمة في تأسيس شكل جديد من الحكومة وجسم سياسي جديد. كانت مرحلة التحرر في سياق الثورة الأمريكية تعني التحرر من التضييق السياسي ومن الاستبداد أو الملكية أو أية كلمة تم استعمالها. وقد تميزت المرحلة الأولى بالعنف إلا أن المرحلة الثانية كانت متعلقة بالتشاور والنقاش والإقناع، وباختصار بتطبيق "العلوم السياسية" كما فهم المؤسسون المصطلح.

إلا أن فرنسا شهدت حدوث أمر مختلف كليةً، حيث تميزت المرحلة الأولى من الثورة بالتفكك عوض الفوضى، وحينما تم بلوغ المرحلة الثانية وأعلنت المعاهدة الوطنية فرنسا جمهورية كانت السلطة قد انتقلت مسبقاً إلى الشوارع. بعد أن تجمع الناس في باريس لتمثيل **الأمة** عوض **الشعب**، والذين كان شُغلهم الشاغل الحكومة وإصلاح الملكية وإقامة الجمهورية في وقت لاحق - سواء كان اسمهم ميرابو أو روبيسبير، دانتون أو سانت - جوست - وجدوا أنفسهم فجأة أمام تحد جديد ومهمة أخرى من التحرير، وهي تحرير الشعب في عمومه من البؤس: تحريرهم حتى يصيروا أحراراً.

لم يكن هذا بعد ما اعتبره كل من ماركس وتوكفيل الخاصية الجديدة تماما لثورة 1848، المتمثلة في التحول من تغيير الحكومة إلى محاولة تغيير نظام المجتمع عبر وسيلة الصراع الطبقي، وفقط بعد فبراير من سنة 1848 بعد "المعركة العظمى الأولى ... بين الطبقتين التي قسمت المجتمع" ذكر ماركس حينها أن الثورة باتت تعني "إسقاط المجتمع البورجوازي، بينما كانت تُحيل من قبل على إسقاط شكل الدولة." لقد كانت الثورة الفرنسية لسنة 1789 مقدمة لهذا، وبالرغم من أنها انتهت بفشل مدوٍّ إلا أنها بقيت حاسمة في كل الثورات اللاحقة. فهي أظهرت المعنى التطبيقي للصيغة الجديدة القائلة بأن كل الناس خلقوا سواسية، هذه المساواة هي التي تحدث عنها روبيسبير، حينما قال إن الثورة تضع عظمة الإنسان في تنافس مع تفاهة العظيم، ولدى هاملتون حين تحدث عن تبرئة الثورة لشرف العرق البشري وكانط الذي تأثر بتعاليم روسو والثورة الفرنسية بتصوره لكرامة جديدة للإنسان. أيا كان ما حققته الثورة الفرنسية وما لم تُحققه من إنجازات - وهي لم تحقق المساواة الانسانية - فقد حررت الفقراء من الغموض والإبهام. إن ما بدا أن لا رجعة فيه منذ ذلك الحين هو أن من كرسوا أنفسهم للحرية بإمكانهم أن يبقوا متصالحين مع وضع راهن، حيث التحرر من الحاجة - الحرية كي يصير المرء حراً - كان امتيازاً للأقلية.

فيما يتعلق بالكوكبة الأصلية للثوار وجماهير الفقراء التي خرجت إلى العلن، أقتبس هنا الوصف التفسيري للورد أكتون لمسيرة النساء إلى فرساي، والتي كانت إحدى أبرز نقط التحول في الثورة الفرنسية، حيث قال إن المتظاهرات في المسيرة "لعبن الدور الأصيل للأمهات اللائي كان يتضور أبناؤهن جوعاً في منازل قذرة، وقد وفرن بالتالي للدوافع التي لم يفهمنها ولم يشاركنها (أي الانشغال بالحكومة) مساعدة تمثلت في إزميل ذي حد ماسي لم يتمكن أي شيء من مقاومته". إن ما أضافه الشعب للثورة حسب ما فهم الفرنسيون ذلك، وهو ما كان غائباً تماما عن مجرى الأحداث في أمريكا، هي الحركة التي لا تقاوم، والتي لم تعد السلطة البشرية قادرة على ضبطها. وقد جاءت هذه التجربة الأولية من عدم المقاومة - المغرية بقدر إغراء حركة النجوم - بتصور جديد كلياً، والذي لا زلنا نربطه اليوم تلقائياً في أفكارنا حول الأحداث الثورية.

عندما هتف سانت - جوست تحت تأثير ما رأته عيناه "التعيسون هم قوة الأرض"؛ فقد كان يعني "التيار الثوري الجارف" العظيم (ديسمولان)، والذي حُمل الثوار على أمواجه المتدفقة، ونقلوا بعيداً إلى أن جذبهم تيارها التحتي من الواجهة ليهلكوا مع خصومهم، الواقفين وراء الثورة المضادة. أو تيار روبيسبيير العاصف والقوي، والذي غذته جرائم الاستبداد من جهة، وتقدم الحرية من جهة أخرى، وهو المتزايد باستمرار من حيث السرعة والعنف. أو ما نقله المتتبعون - "تيار من الحمم المهيبة التي لا تعتق شيئاً ولا يستطيع أحد إيقافها، "مشهد جاء تحت علامة زحل، "الثورة تلتهم أبناءها" (فيركنيود). إن العبارات التي أقتبسها هنا جاءت كلها في سياق حديث رجال كانوا منخرطين بشكل كبير في الثورة الفرنسية، وهي تروي أموراً كانوا شاهدين عليها، لا الأمور التي قاموا بها أو خططوا لها عمداً. هذا ما حدث، وقد علم الناس درساً لم يُنس أبداً في الأمل أو الخوف. الدرس الذي كان بسيطاً لحداثته وفجائيته تمثل في مقولة سانت - جوست: "إذا أردت أن تؤسس جمهورية عليك أن تنتشل أولاً الشعب من حالة البؤس التي تفسدهم. لا وجود للمناقب السياسية دون فخر، ولا يمكن لبئيس أن يشعر بالفخر."

لقد غير هذا المفهوم الجديد للحرية، الذي ينبني على التحرر من الفقر مسار الثورة وهدفها، إذ باتت الحرية تعني آنذاك بالأساس: "الملبس والمأكل وتكاثر الجنس البشري"، حيث ميز اللامتسرولون بشكل واعٍ حقوقهم عن المستعلين وعن اللغة الفارغة لإعلان حقوق الانسان والمواطن. ومقارنة باستعجالية مطالبهم، فقد بدت كل المشاورات التي همت الشكل الأفضل للحكومة غير ذات صلة وعقيمة. قال روبيسبيير: "الجمهورية؟ الملكية؟ لا أعرف إلا المسألة الاجتماعية". من جهته، يضيف سانت - جوست الذي استحدث أكبر قدر ممكن من الحماسة لـ"المؤسسات الجمهورية": "تكمن حرية الشعب في حياته الخاصة. فلتبق الحكومة القوة الوحيدة التي تحمي هذه الوضعية من البساطة ضد القوة نفسها." ربما أن ما غاب عن سانت - جوست أن ذلك ما كانت عليه بالتحديد عقيدة الطغاة المستنيرين التي تضمنت في خطاب تشارلز الأول ملك إنجلترا من على السقالة بأن "يكمن تحرر وحرية الشعب في التوفر على حكومة القوانين التي تضمن له حياته وحاجياته، وليس في الحصول على نسبة في الحكومة حيثُ لا يتصل بهم شيء." إذا كان صحيحاً، مثلما توافق فجأة كل المشاركين الذين حركهم بؤس الشعب، أن هدف الثورات كان هو سعادة الشعب - هدف الثورة هو سعادة الشعب - إذ بمقدور حكومة استبدادية مستنيرة كفايةً أن تضمن ذلك عوض حكومة جمهورية.

خلُصت الثورة الفرنسية إلى كارثة وصارت نقطة مفصلية في تاريخ العالم؛ فقد حققت الثورة الأمريكية نجاحاً باهراً وبقيت شأناً محلياً جزئياً، لأن الظروف الاجتماعية في العالم بالإجمال كانت مشابهة لحد كبير لما كان عليه الحال في فرنسا، وجزئياً لأن التقليد البراغماتي الأنجلوسكسوني الذي لطالما تمت الإشادة به حال دون تفكير الأجيال اللاحقة من الأمريكيين في ثورتهم وتصور تجربتها بالشكل الكافي. ليس غريباً

أن يصبح الاستبداد أو العودة لعصر الحكم المطلق المستنير، والذي تم التعبير عنه بشكل واضح في خضم الثورة الفرنسية، قاعدة لكل الثورات اللاحقة تقريباً أو على الأقل تلك الثورات التي لم تخلص إلى استرداد الوضع الراهن، بل أصبح مهيمناً في النظرية الثورية.

لستُ بحاجة إلى التطرق إلى هذا التطور بالتفصيل، فهو معروف بشكل كاف، خصوصاً مع تاريخ الحزب البلشفي والثورة الروسية. وقد كان أمراً متوقعاً، ففي أواخر صيف سنة 1918 - بعد إصدار الدستور السوفياتي، بل قبل موجة الرعب الأولى التي اندلعت مع محاولة اغتيال لينين - في رسالة خاصة نُشرت لاحقاً لتصير الآن ذائعة الصيت كتبت روزا لوكسمبورغ ما يلي: "مع القمع الذي تتعرض له الحياة السياسية في الأرض بشكل عام .. صارت الحياة ذابلة في كل مؤسسة عمومية لتصبح مجرد مظهر من مظاهر الحياة، حيث تبقى البيروقراطية وحدها العنصر الفعال، كما تغط الحياة العامة في سباتها بشكل متدرج. كما أن دزينة من زعماء الأحزاب ذوي الطاقة التي لا تنضب والخبرة اللامحدودة يوجهون ويحكمون، وبينهم فئة معدودة من الزعماء المميزين الذين يحكمون، ثُم تتم استضافة نخبة من الطبقة العاملة من وقت لآخر للاجتماعات، حيث يصفق أعضاءها لخطابات الزعماء ويمررون القرارات المقترحة بالإجماع ... هي ديكتاتورية بالتأكيد، ليست ديكتاتورية البروليتاريا، وإنما ديكتاتورية حفنة من السياسيين..." وهذا ما صار بالفعل دون أن ينفي أحد ذلك - باستثناء الحكم المطلق لستالين الذي سيكون من الصعب أن يتم تحميل اللينينية أو التقليد الثوري مسؤوليته - إلا أن ما يبدو أقل وضوحاً هو أن في مقدور المرء أن يعدل بعض الكلمات فقط، كي يحظى بوصف ممتاز لعلل الحكم المطلق قبل الثورات.

إن المقارنة بين أول ثورتين، كانت بدايتهما متشابهة لحد كبير وكانت نهايتهما مختلفة جداً، تدل بشكل ملموس في اعتقادي على أن غزو الفقر شرط أساسي لتأسيس الحرية، كما تدل أيضاً على أنه لا يمكن التعاطي مع التحرر من الفقر بالطريقة نفسها في التحرر من الاضطهاد السياسي، وحيث إن لطالما نتجت حرب عن تنافسُ العنف ضد العنف، خارجية كانت أو أهلية، دائماً ما كانت تؤدي منافسة العنف للظروف الاجتماعية إلى الرعب. الرعب عوض العنف فحسب، وجد الرعب موطئ قدم مع تفكك النظام القديم وقيام النظام الجديد، وهو ما عجل بنهاية الثورات أو شوهها بشكل حاسم لتسقط في براثن الطغيان والاستبداد.

لقد قلت سابقاً إن الحرية كانت الهدف الأصلي من الثورة من خلال إلغاء الحكم الفردي وولوج الكل إلى الحياة العامة والمشاركة في تدبير الشؤون التي تهم الجميع. لم يتأت للحكم مصدره الشرعي الأساسي في السعي للسلطة، بل في الرغبة الإنسانية لعتق البشرية من ضروريات الحياة، والذي تطلب تحقيقه العنف ووسائل لإجبار العديدين على تحمل أثقال القلة حتى يتحرر بعضهم على الأقل. كانت تلك نواة العبودية

وليس تكديس الثروة، على الأقل في العصور القديمة، وحده ظهور التكنولوجيا الحديثة أكثر من بروز أي مفاهيم سياسية حديثة، بما في ذلك الأفكار الثورية، هو ما غير هذا الوضع البشري على الأقل في بعض أرجاء العالم.

إن ما حققته أمريكا بفضل حظها الجيد، قد تحققه اليوم دول أخرى عديدة بحكم المجهودات المحسوبة والتنمية المنظمة، هذه الحقيقة هي مقياس أملنا، فهي تجعلنا نأخذ دروس الثورات المشوهة بعين الاعتبار متمسكين بوعدها المتأصل، وأيضاً بعظمتها التي لا يمكن إنكارها.

سأشير فقط في إطار الاستنتاج إلى جانب آخر من الحرية، وهو الذي برز إلى الواجهة خلال الثورات، ولم يهيئ له الثوار أنفسهم بالشكل الكافي، وهو ضرورة تزامن كل من فكرة الثورة والتجربة الفعلية لرسم بداية جديدة في الاستمرارية التاريخية. أُذكركم هنا مرة أخرى، بعبارة النظام العالمي الجديد، أُخذت هذه العبارة المدهشة من الشاعر الروماني فيرجيل، الذي يتحدث في قصيدته الرعوية الرابعة عن "سلسلة العصور العظيمة التي ولدت من جديد" خلال حكم أغسطس. يتحدث فيرجيل هنا عن نظام عظيم (magnus) لا عن نظام جديد (novus)، وهذا التغيير في السطر الأكثر اقتباساً عبر قرون هو ما يميز تجارب العصر الحديث. بالنسبة إلى فيرجيل - في لغة القرن السابع عشر ميلادي حالياً - كانت مسألة تأسيس روما "من جديد" وليس تأسيس "روما جديدة"، كانت هذه طريقته للتهرب، بطريقة رومانية خالصة من المخاطر المخيفة للعنف المتأصل في كسر تقليد روما؛ أي قصة تأسيس المدينة الخالدة المنتقلة من خلال اقتراح بداية جديدة.

بإمكاننا الآن أن نقول إن البداية الجديدة، التي ظنَّ من عاصروا الثورات الأولى أنهم كانوا يشاهدونها، لم تكن سوى انبعاث شيء قديم: حياة علمانية سياسية تنهضُ أخيراً من رحم المسيحية والإقطاعية والحكم المطلق. لكن بغض النظر عما إذا كانت مسألة ولادة أو انبعاث، فإن الأمر القاطع في سطر فيرجيل هو أنه قد اقتُبس من ترنيمة مهد، لا تتنبأ بميلاد طفل ألوهي، بل بمدح الميلاد في جوهره، وقدوم جيل جديد وحدث الإنقاذ العظيم أو "المعجزة" التي ستُخلص البشرية مرارا وتكراراً. بمعنى آخر، هو التأكيد على ألوهية الميلاد والاعتقاد بأن الخلاص المحتمل للعالم يتمثل في واقع أن الجنس البشري يتجدد باستمرار وللأبد.

وأعتقد أن ما جعل رجال الثورة يعودون لقصيدة العصور القديمة هذه بالذات، عدا عن اطلاعهم الواسع، ليس فقط فكرة الحرية ما قبل الثورة، ولكن أيضاً تزامن تجربة التحرر وتداخلها بشكل وثيق مع بداية شيء جديد- أو بشكل مجازي مع ميلاد عصر جديد. كان يبدو أن التحرر وبداية شيء جديد يماثلان بعضهما. ويبدو بشكل جلي أن هذه الهبة البشرية الغامضة؛ أي القدرة على بدء شيء جديد، لها علاقة بواقع

أن كلا منا جاء للعالم كقادم جديد عبر الولادة. بعبارة أخرى، بمقدورنا بداية شيء معين، لأننا بدايات ومن ثم مبتدؤون.

بقدر ما تجعلنا القدرة على التصرف والحديث كائنات سياسية - وليس الحديث إلا صيغة أخرى من التصرف - وحيث إن لطالما دل التصرف على إضفاء الحركة على شيء معين لم يكن من قبل، فإن الولادة أو نسبة المواليد، والتي ترتبط بمعدل الوفيات هي الحالة الوجودية الضرورية لكل السياسات. لقد صعدت إلى الواجهة في تجارب الثورة وأثرت، وإن بشكل ضمني، فيما يمكن أن نسميه الروح الثورية. مع مرور الزمن، تكشف لنا سلسلة الثورات التي صارت السمة المميزة للعالم الذي نعيش فيه، في السراء والضراء، انفجار البدايات الجديدة في إطار الاستمرارية الزمنية والتاريخية.

وسيكون من الحكمة بالنسبة إلينا نحن المدينون للثورة، وما تمخض عنها من تأسيس لجسم سياسي جديد تماماً بالتجول بكرامة والتصرف بحرية، أن نتذكر ما تعنيه الثورة في حياة الأمم. وسواء انتهت بنجاح من خلال التأسيس لفضاء عمومي للحرية، أو بكارثة لمن خاطر بها أو شارك فيها ضدا على رغبتهم وتوقعاتهم، فإن معنى الحرية يتلخص في إدراك واحدة من أعظم وأهم الفرص البشرية، التجربة الفريدة في أن يكون المرء حراً، ليبدأ بداية جديدة وهو ما يترتب عنه الفخر بانفتاح العالم على نظام عالمي جديد.

خلاصةً، كان نيكولو ماكيافيلي، الذي يسميه البعض "أب الثورات" يرغب بحماس في نظام جديد للأمور لإيطاليا إلا أنه لم تكن لديه الخبرة الكافية بخصوص هذه الأمور في تطرقه لها. ومن ثم لا زال الاعتقاد سائداً بأن الصعوبة الكبرى التي يجابهها "المبتكرون" أي الثوار تتمثل في البداية حين يتسلمون السلطة، ويجدون في الاحتفاظ بها سهولة أكبر. نعلم عملياً من خلال كل الثورات، أن العكس صحيح - فمن السهل بمكان الاستحواذ على السلطة إلا أنه من الصعب الاحتفاظ بها - كما لاحظ لينين ذلك ذات مرة، وهو العارف بهذه الأمور، بيد أن ماكيافيلي كان على دراية بكثير من الأمور ليقول ما يلي: "ليس هناك أصعب من الإنجاز، ولا أكثر ريبة من النجاح ولا أخطر من المعالجة من أن يتم التأسيس لنظام جديد من الأمور." أعتقد ألا أحد مما لا معرفة له بقصة القرن العشرين سيجادل في هذه الجملة. كما ثبت أن المخاطر التي تنبأ ماكيافيلي ببروزها صارت واقعية إلى يومنا الحالي، بالرغم من حقيقة أنه لم يكن على دراية بالخطر الأكبر في الثورات المعاصرة - وهو الخطر الذي ينبعث من الفقر. فهو يذكر ما أصبح يسمى منذ الثورة الفرنسية القوى المضادة للثورة، والتي يُمثلها أولئك الذين "يستفيدون من النظام القديم" و"فتور" من قد يستفيدون من النظام الجديد بسبب "شكوكية الجنس البشري، أولئك الذين لا يؤمنون فعلاً بأي شيء جديد إلا إذا خبروه." بيد أن بيت القصيد هو أن ماكيافيلي لم ير الخطر إلا في فشل محاولة إيجاد نظام جديد للأشياء؛ أي في

الإضعاف الكامل للبلاد التي شهدت المحاولة، وهو ما كان بالفعل، حيث أن مثل هذا الإضعاف، أي فراغ السلطة الذي تحدثت عنه من قبل، قد يجذب الغزاة. ليس لأن فراغ السلطة هذا لم يسبق له وجود، بل بإمكانه أن يبقى كامناً لسنوات إلى حين وقوع حدث حاسم، عندما يخرجه كل من انهيار السلطة والثورة إلى العلن من خلال دعوات درامية، حيث يصبح مرئيا ومعروفاً من قبل الجميع. وقد شهدنا، بالإضافة إلى كل هذا، الخطر الأشد الذي يمكن أن ينتج عن المحاولة المُجهضة لتأسيس مؤسسات الحرية، والذي سينتج عنه بالتالي الإبطال التام للحرية ولكل أنواع الحريات.

ولأن الثورات هي التي تطرح بالتحديد سؤال الحرية السياسية في شكلها الواقعي والراديكالي - أي الحرية في المشاركة في الشؤون العامة وحرية المبادرة - تكون باقي الحريات، السياسية منها والمدنية على المحك، عندما تفشل الثورات. إن الثورات المشوهة، مثل ثورة أكتوبر في روسيا في عهد لينين أو الثورات المُجهضة، مثل الاضطرابات العديدة بعدد من القوى المركزية الأوروبية بعد الحرب العالمية الأولى قد تكون لها، مثلما نشهد ذلك الآن، انعكاسات غير مسبوقة تقريباً من حيث الرعب الهائل. والمهم في هذه المسألة، أن الثورات قلما تكون عكسية، إذ إنها صعبة النسيان في حال حدوثها - مثلما كانت ملاحظة كانط حول الثورة الفرنسية في وقت كان يُخيم فيه الرعب على فرنسا. ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال أن من الأفضل تجنب حدوث الثورات، إذ لو كانت الثورات هي نتيجة لأنظمة متفككة تماماً، وليست "منتوجا" للثوار - سواء كان هؤلاء الثوار منظمين في فرق تآمرية أو في أحزاب - فإن الحيلولة دون وقوع ثورة يعني تغيير شكل الحكومة، وهو ما يعني التأثير في ثورة معينة بمختلف المخاطر والمجازفات التي تتضمنها.

إن انهيار السلطة والقوة الذي جرت القاعدة أن يأتي بفجائية لا تُبهر متصفحي الجرائد الورقية فحسب، بل تصدم كل أجهزة المخابرات السرية وخبرائها الذين يشهدون هذه الأشياء، يتحول إلى ثورة بالمعنى الدقيق للكلمة، وهو ما يتحقق بوجود من لهم الإرادة والقدرة على التقاط السلطة والانتقال إلى فراغ السلطة واختراقه إذا جاز التعبير. ويعتمد ما يحدث حينها على عدد من الظروف، ليس أقلها درجة نفاذ بصيرة القوى الأجنبية للانعكاسية الممارسات الثورية، لكنه يعتمد قبل كل شيء على الصفات الذاتية والنجاح أو الإخفاق الأخلاقي - السياسي لمن يرغبون في تقلد المسؤولية. ليس هناك ما يدعونا لنأمل أن يأتي في المستقبل غير البعيد أناسٌ يماثلون الحكمة العملية والنظرية لرجال الثورة الأمريكية، الذين صاروا مؤسسي هذا البلد، إلا أنني أخشى أن يكون بصيصُ الأمل هذا كل ما لدينا في ألا تغيب الحرية في سياقها السياسي عن الأرض مرة أخرى لقرونٍ أخرى كانَ الله أعلمَ بها.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018